



كانون ٢ - شاط ١٩٦١

السنة الخامسة والخمسون

كتاب ختم الاولياء . (تابع)

تأليف أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

تحقيق عثمان اساعيل يحيى

عالية الازهر مع اجازة القضاء الشرعي
دبلوم الدولة للدراسات العليا من جامعة باريس
دكتوراه الدولة من السوربون

بعد هذا العرض المجلل لحياة الترمذي ومؤلفاته، ننتقل الآن الى موضوع آخر وهو دراسة كتاب «ختم الاولياء» وتحليله وبيان مكانته في الآداب الصرفية الاسلامية .

ان الباحث العلمي حين يباشر دراسة نص من النصوص القديمة ، يجب عليه بدياً ان يجابه مجموعة من المشاكل التاريخية ويجدها حللاً تلمأ او قريباً من التام :
أ : صحة النص والوثوق به تاريخياً ، من حيث نسبه الى مؤلفه الحقيقي .

٢ : تأريخ تأليفه بالضبط ، أو على سبيل التقريب .

٣ : الظروف الزمنية أو الشخصية الداعية الى تأليفه .

والاجابة المسددة عن مثل هذه المسائل التاريخية ، لها قيمتها العلمية من غير شك . بيد أن أثرها سيتجلى أكثر فأكثر حين يكون النص المراد تحقيقه ذا مكانة خاصة في تاريخ الفكر البشري لامة من الامم في نبيل من الاجيال . وذلك ، تماماً ، هو شأن كتاب «ختم الاولياء» . والواقع ان هذا النص الذي تقدمه للطبع للمرة الاولى - وكثير من مؤرخي الاداب الاسلامية المحدثين كانوا يتبرون في حكم المفقود^(١) - هو على جانب عظيم من الخطورة ، سواء بالنسبة الى موضوعه الخاص او الى شخصية مؤلفه البارزة او الى الصدى الهائل الذي تركه في البيئة العلمية الاسلامية .

ان «ختم الاولياء» للحكيم الترمذي هو حقاً نتاج اصيل في التراث الصوفي . ويعتبر من براعم الالف الادبية الروحية في حقل الثقافة الاسلامية الخصب . وهو ثمرة ناضجة لذوق صوفي عميق ومجهود مبارك لتفكير ذاتي صميم . ونحن نجد فيه تحليلاً رائماً لنشاط الروح الانساني في مستوى «الصدق» وفي مستوى «البنية» ، اي في مستوى الجهد البشري الخالص ومستوى النعمة الالهية السامية . وكتاب «ختم الاولياء» ايضاً يمتاز بأنه اول وثيقة قديمة في الميدان الصوفي ، على ما نلاحظ ، عاجلت مشكلة النبوة والرسالة على نحو منهجي منظم وبينت خصائصها المشتركة والمفردة ووضحت الصلات الوثيقة القائمة بينها . كما تبدو في هذا السفر القيم ، لازل مرة ، بعض النظريات الخاصة عن معاني «ختم النبوة» و«ختم الولاية» وهي مشروحة على نسق لا نظير له من قبل .

اما شخصية مؤلف هذا الكتاب الهام ، اعني الحكيم الترمذي ، فهي في ذاتي عن التشره بخطرها والاشارة بذكرها . والواقع ان صورة شيخ خراسان من المع الصور الصوفية في تاريخ الاسلام ؛ وتأثيره فيمن جا . بعده كان عظيماً على مدى الاجيال . ان الهيكل العالمي الشامخ الذي شيده بمؤلفاته العديدة

(٣٤٨) انظر مثلاً الاستاذ لويس ماسنيون (L. T.) ص ٢٨٧ ومقدمة كتاب الرياضة

لآدمري وحسن علي عبد القادر وبروكان (G. I. 448: S. N. I, 356) .

ورسائله الشاملة هو اثر خالد في ميدان التفكير الاسلامي والتفكير البشري في آن معاً .

كل هذه العوامل ، مجتمعة ومنفردة ، ستبرر من غير شك اهتمامنا وعنايتنا بالمشاكل التاريخية التي وصفناها سابقاً . فلنجنب عليها اذن بقدر ما تسفنا الوثائق العلمية التي نملكها في الوقت الحاضر .

ليس لدينا الآن مصادر مباشرة ، من الوجهة التاريخية تتيح لنا اجابة حاسمة عن المسألة الاولى ، اعني عن صحة نص «ختم الاولياء» من حيث نسبه الى الحكيم الترمذي . فالمنظران اللذان نملكها حالياً ، وهما الوحيدان في دور الكتب ، ان في الشرق او في الغرب ، بحسب اطلاعنا - كلاهما ليسا بخط المؤلف نفسه ولا بخط احد اتباعه . فيها ما قد نسخا بعد عدة قرون من عصر شيخ ترمذ ولا نعلم على التحقيق اسم الخطاط الذي كتب كلتي النسختين . - المخطوط الاول هو محفوظ في خزانه جامع الفاتح (اسطنبول) وتاريخ نسخه سنة ١٣٧ هجرية . والمخطوط الثاني محفوظ في خزانه ولي الدين (اسطنبول ايضاً) . وهو بدون تاريخ . ولكن يبدو ان هذه النسخة اقدم من نسخة الفاتح ، لانا نجد على غلاف المجموعة (وهي تحتوي على طائفة من الكتب والرسائل كلها للحكيم الترمذي) اقراراً بعدة تملكات لهذا المجموع أعتقها تملك ثابت عام ٨٨٨ للهجرة في ٧ شعبان .

ومع ذلك ، فهاتان النسختان الوحيدتان لكتاب «ختم الاولياء» تثيران بعض المشاكل التاريخية الخاصة بنسبة الكتاب الى مؤلفه الاصيل . فمخطوط خزانه الفاتح هو محفوظ ضمن مجموعة من الرسائل والكتب ، كلها لابن عربي . والنسخ لهذه المجموعة لا يتردد في نسبة هذا الكتاب الى ابن عربي نفسه ، على غلاف المجموع ، بهذا العنوان : «كتاب ختم الولاية (بدل ختم الاولياء) لابن عربي» . وكذلك يلاحظ القارئ في صدر الرسالة نفسها ، على الهامش ، هذا العنوان : «كتاب ختم الولاية» ؛ وهو مكتوب بخط مخالف للاصل وبدون نسبة الى مؤلف ما . بيد انا حين نقرأ نص الكتاب نفسه ، نجد اسم الحكيم الترمذي ثابتاً منذ البدء : «قال الامام ابو عبدالله محمد بن علي بن الحسن

ابن بشر، الحكيم الترمذي... » وكذلك نجد في آخر النسخة، بقلم الناسخ ذاته، هذا التصريح: «تم كتاب ختم الاوليا». وعلى الهامش: «بلغ المقابلة في شهر رجب سنة ١٣٧». - وهكذا تمارضت الاقوال في نسخة الفاتح من حيث عنوان الكتاب ومن حيث نسبة الى مؤلفه الحقيقي. ولكني لا اتردد مطلقاً في رفض نسبة الكتاب الى ابن عربي، كما هو ثابت على غلاف المجموع. اما الاختلاف في العنوان، فالامر فيه سهل، لان كلاً من هذين العنوانين: «ختم الولاية» و«ختم الاوليا». - صحيح.

ونسخة خزانة «ولي الدين» خلو من ذكر عنوان الكتاب: فهو غير مذكور لا في صدر النص ولا في آخره ولا على غلاف المجموع. ولكن اسم المؤلف منصوص عليه في المقدمة: «بسم الله... الحمد لله... قال الامام ابو عبدالله، محمد بن علي الترمذي، رحمه الله...» ولدى مقارنة مخطوط خزانة الفاتح مع مخطوط خزانة ولي الدين نجد محتوئهما واحداً مع فارق يسير في ضبط بعض الكلمات.

لا اعلم، في الوقت الحاضر، اذا كان كتاب «ختم الاوليا» قد ورد له ذكر، على لسان الحكيم الترمذي نفسه، في خلال كتبه او رسائله^(٢٥٠). ولكن قد جاء ذكر هذا الكتاب مبروراً الى الترمذي الحكيم في مصادر متأخرة. لدى مؤلفين عديدين. فهو مذكور مثلاً في:

- حقائق التفسير للسلمي:

(انظر نسخة الاسكندرية ورقة ١٠٦ مخطوط رقم ١٠١٨ ب) (٢٥١)

(٣٥٠) من عادة الحكيم الترمذي ان يذكر بعض مصنفاته في كتبه ورسائله: - من ذلك مثلاً: كتاب رياضة النفس، حيث هو مذكور في مجموعة ليبزيج^(٦٩) - 212 وكتاب الارادات في نفس المجموعة^(٦٢) folio, 32 وكتاب سير الاوليا. folio, 69. الخ. . .
- ثم جاء ذكر كتاب الاوليا، في مجموعة ليبزيج^(٦٥) folio, 203 في السطر السادس. ولكن هذه النسبة غامضة، فهل هي اختصار عنوان حتم الاوليا، او حتم الاوليا، او سير الاوليا؟ او هي عنوان كامل لكتاب مستقل؟ انظر التعليق السابق رقم ٣٥٠

(٣٥١) نقلنا عن نقولا هير، مقدمة «بيان الفرق بين المنذر والقلب والقواد والباب»

ص ١٨ طبعة القاهرة ١٩٥٨

- وكشف المحجوب :
(لاجوري ص ١٧٨ من النمر الفارسي)
- والقروحات المكبية :
(لابن عربي ص ١٨٥) (مجلد اول) و ص ٦٩ (مجلد ثان)
- وعنقا. مفرب :
(لابن عربي المقدمة)
- والجواب المستقيم :
(لابن عربي المقدمة)
- وطبقات الشافعية :
(للسبكي ص ٢٠ جزء ثان)
- وتذكرة الحفاظ :
(للذهبي ص ١٩٧ جزء ثان)
- ولان الميزان :
(لابن حجر العسقلاني ص ٣٠٨ جزء خامس)
- ونفحات الانس :
(لجامي ص ١٣١)
- وحقيقة مذهب الاتحاديين :
(لابن نسيبة ص ١١٥)
- وكشف الظنون :
(لجامي خليفة ص ٧٠٠ جزء اول - ط . اسطنبول)
- والطبقات الكبرى :
(للشيرازي ص ١٢ جزء ثان)
- ولطائف المنن :
(لابن عطاء الله الاسكندري ص ٩٥ و ١٢٣) (٢٥٢)

(٢٥٢) نبهني الى ذكر كتاب ختم الاولياء في طبقات الشعراء ولطائف المنن اخري في الله السيد الفاضل عبد العزيز شودري (من باكستان) في احدي رسائله لي ، فجزاه الله خيراً .

هذا ، ونجد في بعض المصادر التاريخية للتأخرة عن عصر الترمذي ، جلاً منقولة من كتاب ختم الاوليا . او فضلاً برمتها ؛ من ذلك ، مثلاً : طبقات الصوفية للسلمى وبيجة الطائفة البديسية والفتوحات المكية والجواب المستقيم لابن عربي^(٢٥٦) . وحين نقارن هذه النصوص المختلفة مع نص ختم الاوليا ، كما هو محفوظ الآن في مخطوطتي الفاتح وولي الدين ، نلاحظ مباشرة موافقة تامة بين هذه النقول والنص الاصل^(٢٥٧) . وهذا من شأنه ان يرجح لدينا صحة النص التاريخي لسختي وولي الدين والفاتح ، بالرغم من انها قد كتبتا بعد عدة اجيال من عصر المؤلف .

اما ما يخص تزيين تحرير الكتاب والظروف الزمنية او الشخصية الداعية اليه ، فلا شيء صريح في هذا الباب . فنحن لا نجد ذكراً لهذا لا في نص الكتاب ذاته ولا في نصوص اخرى للبحكم الترمذي . نعم ، هناك بعض الاشارات الى ذلك ، إلا انها اشارات عابرة غامضة جاءت عرضاً في كلام الشيخ نفسه او في كلام من كتبوا عنه . فمثلاً نجد الترمذي في «ختم الاوليا» ، حين يذكر اسم يحيى بن معاذ الازدي ، يؤكد معرفته به من قبل ويتبع ذلك بقوله : «رحمه الله !» وهذا يفيد ان «ختم الاوليا» قد كتب بعد وفاة شيخ نيسابور ، اي بعد سنة ٢٥٨ للهجرة . كما نجد ايضاً في «بدر الثمان» ان الحاكم الترمذي كان مظنة للريبة وموضع الاتهام من علماء بلده . ولا ريب ان هذا كان بسبب افكاره الخاصة بالنبوة والولاية التي شرحها بتفصيل في «ختم الاوليا» . ونحن حين نؤمن النظر في اسلوب هذا الكتاب وطريقة عرضه

(٢٥٦) انظر طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٠ وبيجة الطائفة لبديسي نسخة برلين ، رقم ٢٨٤٢ : ٤٣ . ٤٤ . ٤٥ . ولسان الجواب المستقيم حيث ذكر ابن عربي نص كتاب ختم الاوليا . ثم اجاب عنها كما فعل ذلك ايضاً في الفتوحات المكية ص ٣٩-٣٩٠ مجلد ثان . (٢٥٧) لم نجد فرقاً في الواقع بين نص ختم الاوليا واحوية ابن عربي في الجواب المستقيم والفتوحات الا في موضعين اثنين : وهما خاصان « بانفام باخجة » والطريق الآخر الخاص بالانفام باخجة لاقامة الخجة على الخلق كافة من غير طريق اليهودية . وعندنا الموشان هما عنوانا مسألتيين من مسائل الترمذي لا نجد لهما مقابلاً لا في الفتوحات ولا في الجواب المستقيم . وهذا ما يفسر الاختلاف في الترفيم بين الفتوحات وبين ما وضناه نص ختم الاوليا .

وتناوله لموضوعاته ، ندرك بديا نضوج التفكير والاحاطة التامة باطراف الموضوع ، وذلك يدل على ان « ختم الاوليا . » قد كتب في فترة متأخرة من عمر صاحبه ، بمد تجربة عميقة في طبيعة الحياة الروحية واختبار طويل في هذا السبيل . وهذا ما تؤكد لنا في الواقع بعض الروايات التاريخية المتأخرة التي تحدثت عن الحكميم الترمذي وعن مؤلفه « ختم الاوليا . »^(٥٥) بالذات .

* *

الموضوع الاساسي لكتاب « ختم الاوليا . » هو تحليل الاختبار او الذوق الصوفي بحسب معيارين أو نمطين مختلفين تماماً : مقياس الصدق ومقياس المنة . الاول : هو مقياس انساني بحت ؛ والثاني : هو مقياس الاهي صميم ، او بتعبير ادق : هو الاهي من حيث مبدؤه الفاعل وانساني من حيث مظهره القابل . وقد شرح لنا المؤلف هذه النظرية الخطيرة ، مستعيناً على ذلك بعرفة واسعة لطبيعة النفس الانسانية واختبار عميق لحقيقة النشاط الروحي . واثنا . عرضة لهذه القضية ، اثار الحكميم الترمذي طائفة من المطالعات الفكرية ، التي لها صلة بالاختبار الصوفي : علم الاوليا . والانيا . بالنسبة الى علم علماء الرسوم ؛ عنصر الزمان وعلاقته بالتطور الانساني والروحي ؛ طبيعة الولاية وطبيعة النبوة وسائر المشتركات والخاصة ؛ منازل القلوب ودرجات الاعمال ...

وفي مستهل الكتاب ، حدد المؤلف نفسه نطاق بحثه وبين الخطوط الكبرى للموضوعات التي سيدور حولها الحديث . وهو تحقيق القول فيما « خاض فيه طائفة من الناس في شأن الولاية » و« شأن الاوليا . » ومنازلهم وما يلزم من قبولهم وهل يعرف الولي نفسه ام لا ؟ « وهل « الولاية مجبولة عند اهلها » ام لا ؟ و« حقيقة « من حسب نفسه وليا وهو بعيد » عن ذلك .

ويبدو الكتاب ، في مجموعه ، على شكل حوار جذاب بين الشيخ وأحد مرهديه : التلميذ « الفتى » يسأل والشيخ المرشد يجيب . وهذا اللون من التأليف معروف في الآداب الاسلامية العربية ، وخاصة في الارسط الصوفية^(٥٦) .

(٥٥) انظر مثلاً لسان الميزان لابن حجر ص ٣٠٨ الجزء الخامس .

(٥٦) انظر مثلاً ، في عمر المؤلف ، كتاب القصد والرجوع الى الله لسحاسي وكتاب الصدق لابي سيد الخراز .

ولا ريب ان لهذا الاسلوب قيمته الذاتية في تقرير المطاني وتوصيل الافكار الى الآخرين ، وذلك غرض اصيل يحرص عليه العلماء المهتمون بشؤون الروح وتربية الافراد .

ويدور الحوار في هذا الكتاب ، من غير تسلسل منطقي ، سمحاً سهلاً ، عليه طابع الفطرة . ولا تظهر فيه آثار الصياغة الفنية لموضوعاته المختلفة ولا الحطة العلمية لتبويب نصرله على نحو مطرد منسق . ومن ثم يعثر القارئ احياناً على تكرار في سياق الحديث واضطراب في عرض الافكار . وقد اردنا ، فيما يلي ، وضع فهرس تحليلي منظم لفصول الكتاب وموضوعاته الاساسية لكي تنجلي افكار المصنف اكثر فاكثر وتتضح معالم الكتاب وخطته العامة تماماً .

مقدمة المصنف :

موضوع الكتاب - اضطراب بعض الناس في شأن الولاية - الصدق والمنة .

الفصل الاول

ولي حق الله :

حفظ الجوارح السبع - النفس والشجرة - حفظ الباطن - ارادة الترك -
الجزاء - لقاء الله - خطر الطريق - الكيس - زلزل الطريق - شهوات
المعاصي والطاعات .

الفصل الثاني

دعوة الحق واجابة البد :

اجابة من آمن بالله وخلط في عمل الاركان - اجابة من اخلص العمل لله -
اجابة من اخلص القلب وتطهر من شهوات النفس - اجابة من تقرب الى
الحق وحده - الكيس فتح له الطريق فار قدماً الى الله - حراسة القلب
ولصوية النفس - هتات النفس - مثل السكة - مجهود الصادق - المضطر
في مفازة الارض والمضطر في مفاوز السير الى الحق - الجهاد - محل الصادقين
ومحل الاحرار - السر - بيت العزة - البيت المعمور .

الفصل الثالث

ولي حق الله وولي الله :

مراتب كل منها - الخائن في الطريق - عبد النفس وعبد الله - العبادة والعبودية - مجالس القربة وانوارها.

الفصل الرابع

المسائل الروحانية :

امتحان ادعياء الطريق .

الفصل الخامس

علم الاولياء وعلم الانبياء :

العلم الباطن وخصائصه - تمام ولاية الله - ادعياء التصوف - شأن الذين وصلوا - لزوم حفظ المرتبة - الحرس - خداع النفس - مجالس الحديث - ولي حق الله .

الفصل السادس

ولي الله :

الثبات في المرتبة - ولاية البد وولاية الله - ولاية الرحمة وولاية الجود .

الفصل السابع

خصال الولاية الشر :

الوفاء بالشرط - ملك الفردانية - منتهى العقول - اسماء الله - ختم الاولياء - صفات الله وحفظ المؤمن منها - الاسم الظاهر والاسم الباطن - اول الاسماء - الكنية - هل تصير القلوب إلى ما لا منتهى له ؟

الفصل الثامن

خاتم الاولياء وخاتم الانبياء :

فضل بعض النبيين على بعض - خصوصية محمد عليه السلام من بين سائر البشر - خاتم النبوة - قدم الصدق - صدق العبودية - لوا. الحد - مفاتيح الكرم - بشرى بشرط والبشرى بلا شرط - الحجعة - الشفاعة - معنى « خاتم النبيين » .

الفصل التاسع

النبوة والولاية :

قدم الصدق - الاربعون صديقاً - صدق الولاية والنبوة والعبودية - خاتم الاولياء. مذكور في البدء - مقامه في ملك الملك - اهل البيت .

الفصل العاشر

علامات الاولياء :

الفرق بين النبوة والولاية - الفرق بين الحديث والكلام - هل تغير الاتبياء جزء من النبوة ؟ - الروح والامر والحق والسكينة والمحبة - الحكمة العليا (= حكمة الحكمة) - المحدث من بين الاولياء - المحدث والمجنوب محروسان بالحق والسكينة - السكينة .

الفصل الحادى عشر

إلقاء الشيطان ونسخ الله .

سبيل العدو (الشيطان) في الحديث وسيله في الوحي - ابن عباس كان يقرن الرسالة والنبوة والحديث في طلق واحد - انواع المرسلين - الرسول والنبي والمحدث - ذو القرنين - لقمان - الدعاء الى الله على بصيرة - وسوسة الشيطان وتأيد الله - خصوصية عمر رضي الله عنه .

الفصل الثاني عشر

اهل القرية :

انواصل الى المرتبة بشروط اللزوم والمكاتب - المجنوب - القائم بالحجة - علامات الاولياء بالظاهر - علاماتهم بالباطن - شمائلهم - هل الولي مبرقع في قباب الله ؟ - المؤمن الحنيف الحاذق - عباد الرحمن - قلب المؤمن - انما يخفى شأن الولي على صنفين من الناس .

الفصل الثالث عشر

خاتم الاولياء :

صفته ، مقامه ، مناجاته - خزائن السعي والمئن والقرب - خوف الاولياء -

المشغول بالذكر عن المسألة والمشغول بالذكر عن الذكر - البلميون والحطاميون -
هل يخاف المحدث - ر. العاقبة ? - آداب الملوك في معاملة الخدم - يجوز ان
يشتر الاولياء بحسن العاقبة ? - البشري - الرزيا الصالحة - القلب الذي
في القبضة .

الفصل الرابع عشر

البشري :

تركيب ابن آدم - الاولياء الذين أخذوا من اجزاء النبوة اكبرها -
العشرة المبشرون بالجنة من الصحابة - صفة الاولياء في القرآن الكريم .

الفصل الخامس عشر

الكتاب والروح :

عود الى صفة الاولياء في القرآن الكريم - العروة الوثقى - قلوب الاولياء .
على قلب رجل واحد - الروح والريحان .

الفصل السادس عشر

تنكبر عامة المؤمنين وتفكبر خاصة الاولياء :

سائر الموحدين يعقلهم يعقلون والاولياء المقربون بالله يعقلون - المنكر
لاحوال الاولياء كالمعتل لصفات الله - ادعاء التصوف ومنتحلو الطب - خداع
النفس في الحلال والحرام - المكر الالهي .

الفصل السابع عشر

عقد الولاية وعقد النبوة :

ولاية الله للانبياء وولايته للاولياء - اهل اليقين .

الفصل الثامن عشر

منكرو احوال الاولياء :

الهام عمر رضي الله عنه - ادعاء التصوف - الانبياء والاولياء -
الزندقة - عمل الروح وحفظ القلب - الهام عمر وابي بكر رضي الله عنهما -
وجوه النيب .

الفصل التاسع عشر

الولاية والسادة والمعجبة :

الولاية حق - البشرى حق - اطلاع مريم على الغيب - منكر احوال الاولياء .

الفصل العشرون

الولي والمصيبة :

حاله في وقت المصيبة - حظ يحيى بن معاذ في ملك الجبال .

الفصل الحادي والعشرون

الولي والامرار الالهية :

الهداية والحشية - مرتبة الانس -- مرتبة الانفراد - سيد الاولياء . -
المهتدى والمجتبي - المجذوب .

الفصل الثاني والعشرون

المهتدى والمجتبي :

الواصل مجهد والواصل بغير جهد - الصادق - المبودية والرسالة - تدبير الملك في اختيار بعض الرعية .

الفصل الثالث والعشرون

المدة والجذبة :

السبب في المدة بعد الجذب -- تأدب الرسول في الستين المشرة المكينة -
الاذن بالدفاع - طريق الانبياء - الهجرة والانصار والايواء - حظ هذه الامة
من اليقين .

الفصل الرابع والعشرون

المجذوب :

صفات المجذوب - القبضة - الفخر - معرض المحدثين - من شغلوا
بعذاب نفوسهم - العلم الحقيقي - مشيئة الوصول - شربة الحب .

الفصل الخامس والعشرون

خاتم الاولياء :

صفاته - معنى ختم الولاية .

الفصل السادس والعشرون

اولياء الزور :

الحق والوفاء بقيام التوحيد - الرحمة - المومن يعامل الخلق بالحق والرحمة -
اهل الله طار عن قلوبهم رضى الخلق وسخطهم - ادعياء التصرف ، شغل
النبي عليه الصلاة والسلام - مجوس هذه الامة - الدنيا والمرأة الزانية - ادعياء
التصرف .

الفصل السابع والعشرون

دولة المجر ودولة السر :

للخير اقبال وللشر اقبال - الولاية والصدقية ليستا من الزمان في شيء -
القائم بالحجة - خير هذه الامة اولها وآخرها - غزوة مؤتة .

الفصل الثامن والعشرون

اهل هذا الدين :

هم صفان : عمال واهل يقين - الطائفة الظاهرة على الحق - المهاجرون
والانصار .

الفصل التاسع والعشرون

الاعمال والدرجات :

اعمال الجوارح مرتبطة بالزمان ودرجات القلوب ليست كذلك - المهدي
كان في آخر الزمان - وكذلك من له ختم الولاية - تحقيق فضيلة ابي بكر
وعمر رضى الله عنهما - وقت غزوة الحق - تفاضل اهل اليقين - امة محمد عليه
العلاء والسلام ثلاثة اقسام - حنظلي بكر وعمر وعلي رضى الله عنهم -
جنة السابقين وجنة المتقين - تصديق المرسلين - مريم الصديقة .

- تلك هي الابحاث المختلفة والافكار العديدة التي عالجها كتاب « ختم الاوليا » وتناولها بالمرض والناقشة والتحليل . ونستطيع على ضوء ما تقدم ، ان نقرر ان فصول هذا السفر القيم تدور حول هذه المواضيع الاساسية المحددة :
- ١ : النشاط الروحي في دائرة الصدق وفي دائرة المنة .
 - ٢ : مشكلة الظاهر والباطن .
 - ٣ : النبوة والولاية والرسالة وصلاتها العامة وبميزاتها الخاصة .

* * *

في نظر شيخ خراسان ، الحياة الروحية يتحقق كيانها وتبرز آثارها في نطاقين اثنين او في مجالين اثنين : في مجال «الصدق» ، اي المجهود الانساني البحت ؛ وفي مجال «المنة» ، اي العطا . الالهي الفائق وتمتته السامية . فالنشاط الروحي ، في مستوى الصدق ، يقوم على اساس ثابت من عمل الانسان واختباره الخاص ؛ بيد أنه في مستوى المنة ينشئ من يتابع الجود الالهي وضمنه العجيب . . . وبتمبير آخر ، ان النشاط الروحي في دائرة المنة ينهض على فكرة «المدى الرباني» وتدخله المباشر في كيان الانسان من اجل حياة اكل ومصير اشرف . - وهذا التمييز بين مجالى النشاط الروحي لا يعود فقط الى طبيعة الفرق الاساسي بين ما هو انساني بحت وما هو الالهي صميم ، ولكنه ايضا وبصورة خاصة يعود الى الخلاف الذاتي بين مظهرين او نمطين من الحياة الروحية = الحياة الروحية في مظهرها الانساني الخاص والحياة الروحية في مظهرها الالهي السامي . ويقرر حكيم ترمذ ان كلاً من هذين النمطين للنشاط الروحي ينتظم في سلك الولاية : النمط الاول هو الولاية العامة ، او ولاية حقوق الله ؛ النمط الثاني هو الولاية الخاصة ، او ولاية الله حقاً !

والترمذي في عرضه لجوانب الحياة الروحية ، يصطنع جملة بطيئة من الالفاظ الفنية ذات الدلالات الخاصة ، الامر الذي يوضح لنا مدى الدقة في تعبيره وعمق الاختبار في ذوقه . والواقع ان حكيم ترمذ فريد من بين سائر شيوخ التصوف القدامى في تحليله الزائغ لطبيعة النفس ومدارج الترتي المعنوي وارتباط اعمال الجوارح بتنازل القلوب : انه حقاً محلل نفسي بارع ومن اساطين الحكمة القبيية في الاسلام .

والاولياء عند الحكيم الترمذي ، ينقسمون الى قسمين اثنين : اولياء حق الله واولياء الله خطأ . والاولون هم اصحاب الولاية العامة والآخرون هم اصحاب الولاية الخاصة . فالولي العام ، او ولي حق الله هو الذي اتخذ الصدق قاعدة له ومنهجاً ، لا يجيد عنها مطلقاً . وقاعدة الصدق في الحياة الروحية ، تظهر آثارها في نطاقين اثنين : في نطاق ظاهري خارجي وفي نطاق باطني داخلي . فالسالك في هذا الطريق ، حين يعي تماماً بحقيقته الانسانية ومعناه الوجودي ومصدره النهائي ، يلزم اغشاءه وجوارحه حفظ الشريعة ومقتضياتها . فهو يؤدي الفرائض على وجهها الصحيح ويعتمد عن المحارم والمكروه ابتعاداً كلياً ويأخذ نفسه بالجد الصارم في كل ما يفعل وما يذر حتى تستقيم «اركائه» لشرع الله في نبيه وأمره . وانه لمن الجهل المطبق والفغلة الحمقاء ان يظن المرء ان الحياة الروحية تدرك بمجرد الرغبة فيها او الصبر اليها . كلا ! ان الحياة الروحية ، وهي اسمى اطوار الوجود الانساني ، نشاط تم للكائن ؛ اي هي مجرد متكامل الكيان البشري من جميع اقطاره : فكراً وارادة ، نية وعملاً .

ولكن يجب على السالك في الطريق ان لا يكتفي بالقيام باعمال الجوارح فحسب بل عليه ان يقوم بعمل آخر باطني ، هو المعيار الحقيقي لكل ما يحققه في الخارج من عبادات ومعاملات . هذا العمل الباطني هو مراقبة النفس وتصحيح النية . والصادق في سيره الى الحق سبحانه ! كما هو ملزم بترويض أعضائه على احكام العبادة هو ملزم ايضاً بترويض نفسه على شؤون الصودية .

والترمذي يصف لنا بلغة مؤثرة النضال المرير الذي يستعر بين المرء ونفسه الفردية الشهوانية من اجل الحرية والتحرير : « فما زال ذلك دأب هذا الصادق في سيره الى الله تعالى : يمنع نفسه لذة الحلال ولذة الطاعات ولذة العطا . (هو) مع ذلك ، يجاهد نفسه في تصفية الاخلاق الدنية : مثل الشح والرغبة والمذمة والجنون والحقد ، واشباه ذلك . . . حتى اذا استفرغ مجهوده من الصدق ولم يبق للحق قبلة اقتضا . ، التفت الى نفسه فوجدها كما كانت بدياً : فيها تلك الهنات موجودة . قال له قائل : وما تلك الهنات ؟ قال : الفرح بالاحوال عند الخلق والطلب للنازل العلية عند الله . . . (فهو) يتزلة سمكة يريد صاحبها ان يمتها ، فيلقيا على التراب ، فهي تضطرب فيه ، قد اذف

منها الموت . ثم يشفق عليها صاحبها ، فينظفها في الماء . غطاً ثم يرمي بها الى اليس . ثم لما اذف منها الموت ، رش عليها الماء . فاحياها . فهذا لب من صاحبها بها ! » .

ويبدو الترمذي من خلال تحليله لطبيعة النفس الفردية متشائماً جداً . ومثله في هذا ، مثل سائر الصوفية على الاطلاق وخاصة الملامية . فهو يقرر بوضوح ودقة ان السائر في الطريق سينتهي به المطاف ، في آخر الامر ، الى درجة اليجز والحيرة والاضطرار . وسيقف آنشد صفر اليدن خالي الرفاض باذي الانفاض ، يرتد طرفه نحو السماء خاشئاً وهو حسير ! وتلك هي الليلة الظلما . بحيث لا نجم ولا كوكب ولا قمر . . بيد ان الحكيم الترمذي اذا كان متشائماً بالقياس الى طبيعة النفس ومدى امكانها وطاقتها فهو جد متفائل بالقياس الى رحمة الله سبحانه ، وعظيم غفرانه وسعة سلطانه . فانسمع اليه ايضاً :

« فلما استفرغ هذا الصادق مجهوده في الصدق في سيره ، على ما وصفت ، ووجدها (اي نفسه) حية معها هذه الصفات (المذمومة) تحير وانقطع صدقه وقال : كيف لي ان اخرج من نفسي حلالة هذه الاشيا . ? فلم انه لا يقدر على ذلك ، كما لا يقدر ان يبيض الشعر السودا . وقال : ان هذه نفسي قد اوتقتها بالصدق مني لله ، فكيف لي ان حلت وثاقها فأبقت وهربت ، متى أخفها ؟ فوقع في مفازة الحيرة . فاستوحش ا وبقني وحيداً في تلك المفازة ، لانه قد ذهب أنس النفس ولم ينل انس الخالق . فحينئذ صار مضطراً ، لا يدري أيقبل ام يدبر ؟ فدمرغ الى الله يانساً من صدقه صفر اليدن ، خالي القلب من كل جهد . ويقال في نجواه :

قد تعلم ، يا عالم العيوب والخطيات ا

انه لم يبقَ لملي بالصدق موضع قدم أنتخطى به .

ولا لي مقدرة على محو هذه الشبوات الدنة من نفسي وقلبي فأغثني ا

فادركته الرحمة فرحم . فطير بقلبه من مكانه الذي انقطع فيه في لحظة فوقف به في محل القرية ، عند ذي العرش . فوجد روح القرية ونسبها وتبجح في فضاؤها وفي ساحات توحيده . وذلك قوله ، عز وجل :

وَاللَّهُ يَخْتَارُ
مَنْ يَشَاءُ لِمَنْ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ لِمَنْ يَرْزُقُ

﴿ آمنٌ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجلبكم خلفاءه الارض ﴾

* * *

تلك هي بالأجمال طبيعة الاختبار الروحي القائم على قواعد الصدق والمجربد الانساني الخالص ؛ وتلك هي ايضاً حدوده وآفاقه ومراميه . ويمكننا ان ندرك شيئاً على ما تقدم ، ان الغرض الاصيل لرجل الصدق في مجهوده المنصري هو اولاً تحقيق التكامل النفسي لشخصيته الفردية . وهذا التكامل النفسي من شأنه ان يثبت في كيانه روح الانجم والسلام والطمأنينة . وهو ثانياً يرجو في جميع اعماله ما أعده الله للصادقين ، في الحياة الآخرة ، من حسن ثواب ومآب .

امنا النشاط الروحي الصادر عن ينبوع النعمة الالهية والمنة الازلية فهو ايضاً يقصد أولاً ما يقصد الهيمنة على الجسم خارجياً والسيطرة على النفس داخلياً : كما يفعل رجل الصدق تماماً . ومع ذلك فان الاوضاع جد مختلفة بين كلا الاختبارين ، اعني بين قاعدة الصدق وقاعدة المنة . أجل ! ان صاحب النعمة الالهية الذي اجتبه الله بفضله واختصه بنبته ، هو اشد وعياً من غيره بضرورة تطهير كيانه الداخلي والخارجي . فانه بقدر ما تشع أضواء النعمة في جوانب الذات الإنسانية يكون المرء اكثر طواعية لدعوة الخير واشد انقياداً لصوت الفضيلة ويسرع استجابة لنداء السماء .

وانكبن بيتاً نلاحظ قوى «الصادق» تنوء تحت ثقل النضال المرير بين النفس وأغراضها المتناقضة ، اي بين مطالبها للدنيا ومطالبها العليا ، نرى «صاحب النعمة الالهية» بفضل العون الرباني الدائم ، محفوظاً من ذلك كله كأنه منتشط من عقال آريتنا يكون «الصادق» محدوداً بقدرته وطاقته الادبية والمادية ، إذ «رجل المنة» متحرر من قيود الفردية ، منطلق في اجواء الذاتية ، مندفع نحو سما الكمال المطلق ؟

ولعل بعض اصحاب «الترعة الانسانية» ودعاة «الانخلاق الوجودية» يعترضون على فكرة النعمة الالهية ، من حيث انها تسلب الانسان أعز شئ لديه وهو حريته و ارادته واختياره في تقرير مصيره . أليس المرء في مستوى

« النعمة » يصير بمثابة آلة سما . ، ينفعل أكثر ما يفعل ويأخذ أكثر ما يعطى ويستجيب ولا يجيب ؟ والواقع ان هذا فهم سطحي لطبيعة النعمة الالهية وموقف الانسان منها . ان « النعمة » لا تفقد المر . حرته او كسبه ولكنها ، بكل دقة ، تسو بها الى منطقة اسمى بكثير من منطقة الانسان وحده وواقفه . ونحن حين نتأمل في سيرة اصحاب النعمة المقدسة ، اي في سيرة الاولياء . حقاً نجدهم اكثر الناس تمسكاً « بالتضائل الانسانية » واشدهم حياً للانسان من حيث هو انسان ! وكذلك نراهم اعتمى من غيرهم في فهم معنى الواجب والتضحية والقداء .

* * *

يرى الحكيم الترمذي بحق ان اهل الصدق هم عمال في الحياة الروحية شأنهم في هذا شأن الخدام والاجراء . في الحياة المادية سواء بسواء . وذلك لان اصحاب الصدق يضعون نصب اعينهم دائماً فكرة الجزاء المباشر لنشاطهم ، اي فكرة المنفعة العاجلة او الآجلة لقاء مجهودهم ؟ فهم اذن لم يخلصوا العسل لله وحده او لوجهه الكريم . كما ان رجال الصدق منصرفون تماماً الى الفعل ، مستغرقون فيه بالكلية فليس لهم اشراق سام الى سما . التامل المحض او المشاهدة الخالصة .

وعلى العكس من هؤلاء ، رجال النعمة المقدسة - الصديقون : هم الاحرار ، الاوفياء ، النبلاء ، كما يسميهم شيخ ترمذ . غرضهم الاخص هو التحرر الاتم من نطاق الفردية الضيق ، اعني التنزه عن كل قيد او شرط او حد . . . ونشاطهم موجه شطر الحق وحده ، لا يرضون دونه بدلاً ولا في ماسوا . جزاءا او شكوراً . فانه وحده هو جزاؤهم ووجه الكريم هو قبيلتهم وغبطتهم . انهم على الارض يعيشون ببهجة النماء ، وفي السماء . يحيون الأبد . انهم على الارض ينبجججون في ميادين التوحيد وفي السماء . يلقون نضرة العيان ونعيم الخلود .

ويقول الترمذي بمباردة وخبرة ان الصادق لا يستطيع التحرر تماماً من سلطان نفسه الشهوانية وبالتالي لا يقدر ان يسيطر بالكلية على جوارحه واعضائه الظاهرية . نعم ، انه يمكنه ان يتعدى عن المحارم والمكاهم ، وحتى عن شهوة النفس فيها ؟

بيد انه ليس في وسعه ان يتخلص من شهوات النفس في الطاعات والمعامد والمكارم : فالنفس مجبولة على حب هذه الاشياء . وما دامت هذه النفس الشهوانية حية وموجودة فلا سبيل الى الحرية التامة والكمال المنشود .

ولكن اذا تيسر لصاحب النعمة الالهية ان يتخطى حدود فرديته الضيقة وينتقل من عبودية نفسه الشهوانية فذلك انما يكون بوساطة قوة عليا اعظم من قوته ، الا وهي قوة الحق سبحانه وتعالى ! ان الفوارق الحاسمة والاساسية بين « الصادق » والمنعم عليه ، في الحياة الروحية ، ان هذا الاخير يعيش بالله وقلبه ويريد بالله وقلبه ويحب ويرضى بالله وقلبه . اما رجل « الصادق » فلم يصل ولن يصل الى هذا المستوى الفائق العظيم . - والترمذي يستدل على نظريته هذه بالحديث القدسي المعروف : «... ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه . فاذا احبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها وقلبه الذي يعقل به . فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي وبي يعقل . ولئن سألتني لاعطينه ولئن استعاذني لاعيننه^(٢٥٧) .

فهذا العبد ، الذي هو محلي الحب الالهي وموضع اطفافه ، هو كائن رباني حقاً : يرى بالله ويسمع بالله ويعقل ويتأمل بالله . وليس ذلك يعني ان الله سبحانه ، قد اصبح انساناً او ان الانسان قد اصبح الالهاً . جل جلال الحق ان يكون موضوع الحوادث او ان يكون حادثاً ! ولكن الحقيقة الكبرى ، التي يدل عليها هذا الحديث القدسي الشريف ، والتي هي ذروة التوحيد وتاج العرفان ، هي شهادة الحق لنفسه بنفسه عبر الكائن الانساني الفاني . وذلك هو صنع الحب الالهي وشأنه الخلاق العجيب !

* * *

(٣٥٧) اخرج هذا الحديث القدسي البخاري عن ابي هريرة ؛ واخرجه بروايات اخر ، احمد وابن ابي الدنيا وابو نعيم والبيهقي عن عائشة ؛ والطبراني والبيهقي عن ابي امامة ؛ والاسماعيلي عن علي ؛ والطبراني عن ابن عباس وانس وحذيفة ؛ وابو يعلى والبراء عن انس ؛ وابن ماجه وابو نعيم عن معاذ ؛ واحمد وابو نعيم عن وهب بن منبه . وقد شرح هذا الحديث ابن القيم في الجواب الكافي ص ٢٤٩-٢٥٣ (ط . ١٣٦٦ . هـ) . وهو الحديث الثامن والثلاثون من شرح « خمسين حديثاً » للحافظ ابن رجب الحنبلي . (انظر الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ٥٢٠ تعليق رقم ١) .

والحكمة هي العلامة المميّزة والسمة البارزة لاروليا. الله حقاً . والترمذي يعطيه له ان ينعت هذه الحكمة الخاصة : بالحكمة العليا ، ليقابل بينها وبين حكمة الانسان المحدودة القاصرة . ويسميا احياناً : بالعلم الباطن وحياناً بعلم الانبياء . والاروليا ، وهو يعتبرها ميّزة من ميّز الانبياء . والأوليا . وإرثاً يتلقاه - ولا يكتسبه - خلف عن سلف. وحين يريد الترمذي بيان خصائص هذه الحكمة بشي. من التفصيل والوضوح ، يقول بلفظه الرمزية ، ذات الدلالة البعيدة : انها باطن القرآن ونور الايمان وبهجة العرفان !

* * *

اذا تأمل الباحث في النصوص العديدة ، التي اودعها شيخ خراسان في رسائله وكتبه ، عن الولاية والنبوة - يدرك فوراً ان شيخنا له نظرية كاملة في هذا الموضوع ، تتأد حقاً بالظرافة والاصالة والابداع . نعم ، ان حكيم ترمذ لم يصغ نظريته هذه ، على نحو برهاني او جدلي كما يصنع علماء الكلام او ارباب الفلسفة . بل اكتفى بتقرير الخصائص المميّزة لكل من الولاية والنبوة والصلوات العامة والخاصة بين الاروليا والانبياء . واطر الولاية والنبوة في السلام الانساني ومصير البشرية النهائي .

وزيد الآن ان نلخص الافكار والاراء الترمذية المتعلقة بالولاية والنبوة والاروليا . والانبياء . وخاتم الاروليا . وخاتم الانبياء . :

في نظر حكيم ترمذ ، ان طبيعة الولاية ، معناها الدقيق ، هي الالهية لا انسانية كما ان مصدرها بالتالي هو الالهي لا انساني . من أجل هذا ، كان من الخطأ الشنيع والجهل بمجقائق الاشياء . اعتبار امر الولاية من طريق العام البشري او المقاييس الفكرية .

الرسالة والنبوة ، معناها الخاص ، كتأهما امانة الالهية ووظيفة اجتماعية في وقت واحد . بمعنى ان الرسول او النبي يتلقى رسالة من السماء . ويبلغها الى البشر بكل انواع التبليغ ، وهو ملزم بذلك . ومن ثم رافقت المعجزة الرسالة كبرهان خارجي وموضوعي على صحة رسالة الرسول او نبوة النبي . بيد ان الولاية هي مكرمة الالهية ذاتية ، تحمل في اطرافها عناصر الدلالة عليها :

فليست في حاجة الى برهان لها سوى نفسها : « النبوة مع البرهان والولاية هي البرهان ! » .

الصلوات القائمة بين الحق سبحانه وبين اوليائه الابرار هي صلوات رعاية ومودة وعناية : ان الله ولي امر الاوليا . في الدنيا والآخرة واصطنعهم على عينه واقامهم نماذج حية للايمان والحير والفضيلة . كما ان الاوليا . بدورهم ، ولوا امر الله سبحانه ، ونصروا حقوقه وعاشروا به لا لانفسهم وكانوا به في حياتهم وفي موتهم شهادة حقة .

الولاية في طبيعتها الذاتية هي غير زمنية ، بالرغم من انها تظهر في حيز شخصية الولي ، الكائن في نطاق الزمان والمحدود به . ولان الولاية ، من حيث طبيعتها الخاصة ، غير زمنية فهي اذن لا تخضع لعنصر الزمان ولا لقانون التطور في البيئة او المكان . انها في حقيقتها شهادة الله الحية على مخلوقاته ، عبر الانسان الحادث الفاني !

والاوليا . على الارض مظاهر الكمال الالهي في السماء . عليهم سمات بارزة من الحق . « قد علامهم بيا . القربة ونور الجلال وهيبة الوقار وانس الكبرياء . فاذا نظر الناظر اليهم ذكر الله تعالى لما رأى عليهم من آثار الملكوت . » وقلوب الاوليا . معادن الانوار الالهية ومواطن تجلياتها وسرايز اشعاعها .

الولاية هي قرب من الله وحضور معه وبه . ولكن هناك قرب وحضور الاهيان عامان وقرب وحضور الاهيان خاصان . ومن ثم انقسمت الولاية الى قسمين : ولاية عامة وولاية خاصة . فالاولى تشمل كل من آمن بالله وعمل صالحاً وصدق المرسلين . والثانية قاصرة على احباب الله واصفيائه الذين اجتباهم الحق لنفسه وهداهم به اليه . « اولئك الذين يلجون مجالسة سماحاً ويتاجرونه كفاحاً » .

للنبوة ختم وللانبياء خاتم ، والولاية ختم وللاوليا . خاتم . وختم النبوة هو بمثابة المركز الذي تدور حوله النبوة والمبدأ الذي تصدر عنه والغاية التي تتحقق فيه كالاتها . فخاتم الانبياء ليس هو فقط آخر الانبياء مبعثاً او ظهوراً بل هو اسامهم مقاماً وادفعهم ذكراً وأبعدهم صراحة . وكذلك الشأن بالنسبة للولاية والاريا .

هذا ، وقد اعتمدنا في تحقيق نص « ختم الاوليا . » على نسختين محفوظتين في خزائن اسطنبول ، وهما النسختان الوحيدتان في الوقت الحاضر لهذا الكتاب . نسخة الفاتح (ويشار اليها بحرف ') رقم ٥٣٢٢ / ١٥٣ - ١٦٨ ؛ ونسخة ولي الدين (ويشار اليها بحرف ') رقم ٧٧٠ / ٩١ - ١٦٨ . وقد اعتبرت نسخة الفاتح اساساً لتحقيق رواية النص ، لانها بحسب شهادة الناسخ قد قوبلت على اصل آخر . وهي توجد ضمن مجموعة معظمها فيها من رسائل وكتب لابن عربي . وهي مكتوبة بخط نسخي دقيق ، صغب القراءة . خال من التنقيط في معظم الاحوال .

ومقاس هذه النسخة ٢٥ / ١٧ سم ، مسطرتها ٣٥ سطراً . وهي في حالة جيدة ، مصححة على الهامش بخط الناسخ الاصلي . اسم الناسخ غير مذكور وهي بتاريخ ٩ رجب سنة ٩٣٧ للهجرة .

اما نسخة ولي الدين فهي ايضا في حالة جيدة وبحظ نسخي واضح ، الا انها كثيرة الاخطاء . ويبدو ان الناسخ من جبهة الخطاطين . والنسخة ضمن مجموعة من الرسائل والكتب كالمعروف للتحكيم الترمذي ، ومقاسها ١٥ × ٢٣ سم ، مسطرتها ٢١ سطراً . والمخطوط بدير تاريخ ولكن يوجد عدة تملكات للمجموع اقدمها سنة ٨٨٨ للهجرة . واسم ناسخ المخطوط غير مذكور . ومن عاداته اغفال ذكر سند الحديث والاكتفاء بثنى .

هذا ، ويوجد في مكتبة دو جموله بابا (اسطنبول) رقم ٢٨٣ / ١ - ١٠٠٠ مخطوط بعنوان : « ختم الولاية » مؤلفه محمد بن محمد القاضي فرغ من تأليفه سنة ١١٨٤ هجرية . وهو خاص ببيان كون ابن عربي هو خاتم الولاية المحمدية ، ولا علاقة له بكتاب « ختم الاوليا . » للتحكيم الترمذي .

نص كتاب ختم الاولياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مقدمة المصنف)

(١٥٣) قال الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم^١ الترمذي رحمه الله : الحمد لله ، رب العالمين وصلى الله محمد النبي وعلى آله اجمعين^٢ .

أما بعد : فإنك ذكرت^٣ البحث في ما خاض فيه طائفة من الناس في شأن^٤ الولاية^٥ ؛ وسألت عن شأن الاولياء ومنزلهم^٦ وما يلزم من

(١) من عادة الحكم الترمذي في تأليفه ، ان يمرض افكاره في شكل حوار يدور بين سائق (التاميز) ومجيب (الشيخ) . انظر مثلاً كتاب الرياضة ص ٨٦ ؛ وكتاب ادب النفس ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١١٩ الخ . . (نشرة ادري وعلی عبدالقادر ، القاهرة سنة ١٩٤٦) . وانظر ايضاً كتاب احكامه ص ٣٤ (مخطوط خراجي اوغلو ، بورصة رقم ٨٠٦) ، وطريقة الخوار سائدة في فن التأليف الصوفي منذ عصر مبكر (انظر كتاب النقد والرجوع الى الله تعالى للشيخ المحاسبي) .

ولكن الذي يميز كتاب ختم الاولياء ، من حيث اسنوبه الخواري ، بالنسبة الى سائر مؤلفات الحكم الترمذي ، هو سيطرة هذه التصفة الخوارية ، هذا اللون الفني الجديس من التأليف ، على مجموع اجزاء الكتاب ونصونه على نحو سنو مطرد .

(٢) هذه الكلمة ذات اصل قرآني (انظر سورة ١٠ : ٦١ ؛ ٥٥ : ٢٩ ؛ ٨٠ : ٣٧) .
والترمذي يستعملها في سياق بحثه ، نادرة بمعنى الخلة ، ونارة بمعنى الشرط .

(٣) ما يخص المنى المحدد للولاية عند الترمذي ، انظر المقدمة .

(٤) منازل الاولياء . يميز في مصطلح التصوفية بين الخال من جهة والمترق والمقام من

١ + وبه الترفيق وهو حسي (ر) . يدربا كرم رقم F . الحمد لله هو اعلم والعلو على محمد رسوله وآله وصحبه وسلم V . ب - V . ت - V . ث - V .
«ج - ج» - V . ح خاضت F .

قبولهم^٥ . وهل يعرف الولي نفسه ام لا ؟ وذكرت ان^٦ تاساً يقولون : ان الولاية بمجولة عند اهلها . ومن حسب نفسه ولياً وهو^٧ بعيد عنها .

فاعلم^٨ ان هؤلاء الذين يخوضون في هذا الامر^٩ ، ليسوا من هذا الامر في^{١٠} شي . س - إنفاش هم قوم يعتبرون شأن الولاية من طريق العلم^{١١} ، ويتكلمون

جهة اخرى . فالحال عندهم : حدث داخلي يفعل له الصوفي اثنا . سيره وترقيه الروحي . وهو بهذا الاعتبار مباغت وعارض . اما المقام او المترل (ج . مقامات وسنازل) فهو درجة يرقى اليها السالك ويستقر فيها في عروجه المضي وفي رياضته الصوفية . فالمقام او المترل اذن ، بالنسبة الى الوعي الصوفي ، هو شيء ثابت او هو حق مكتسب . إن امكن مثل هذا التعبير . وهذا فرق جوهرى يميز بين معنى الحال ومعنى المترل او المقام . ولكن ما هو الفرق بين المترل والمقام ؟ بعض الصوفية يعتبر هذين اللفظين مترادفين . ولكن ، في ظرائف^{١٢} بالرغم من تشابه المقام والمترل في كثير من الوجوه ، يوجد بينها فرق دقيق وحاسم : « المقام » يرمز الى ثقل عنصر « الزمان الروحي » في السلوك الصوفي ، بينما يرمز « المترل » الى ثقل عنصر « المكان الروحي » في صيد التجربة الصوفية نفسها . (راجع بخصوص كلنة حال ، سلمي ، تفسير ، ٨٠ ، 24، p. 24, 2 ed.) - واصلحات الصوفية لابن عربي ص ٣ ، طبعة حيدر باد ، وسنازل السائرين للاضاري ص ١٤٩ ، طبعة de Beaucueil ، القاهرة سنة ١٩٥٤ . وبخصوص كلنتي مترل ومقام ، راجع سلمي ، جوامع ص - ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ١٠٠ . وبخصوص الفرق بين المترل والمقام من الوجهة الشرعية ، انظر ابن بطة ص ٧٩ - 1 Trad. et note

٥) راجع معنى القبول من الوجهة الكلامية (علم الكلام) ابن بطة ص ١٠٢ - Trad. ومعنى القبول من الوجهة الفقهية ، ابن قدامة ص ١٣٠ ، ٢٨٩ (Trad.) .

٦) نقول الحكمة الصينية المتينة : « من يعلم لا يتكلم ، ومن يتكلم لا يعلم ! »

(راجع Tao. p. 80 Trad. Franç.) .

٧) يفرق الحكيم الترمذي ، كسائر الصوفية ، بين نوعين من العلم : العلم الظاهري والعلم الباطني . وهذا الاخير يصفه شيخنا بأنه علم الانبياء . وعلم الاولياء ، وهو الحكمة العليا . وهذه التفرقة بين نوعي العلم الظاهري والعلم الباطني واجبة في الاصل الى طبيعة كل

ش - V . د حيث F . ذ فهو V . ر واعلم V . ذ الكلام V .
س - س ليسوا بأهل حظوظ من رجم F . ش - ش - V .

بالمقاييس^(٨) وبالتوهم من تلقا. أنفسهم ؛ وليسوا بأهل خصوص من ربهيم^(٩) ؛
ولم ييلنوا منازل الولاية ولا عرفوا صنع^(١٠) الله^(١١) . إنفا كلامهم في الصدق^(١٢) ،
ومعيارهم في الامر^(١٣) الصدق . فاذا صاروا الى المن^(١٤) انقطع كلامهم ،
وعجزوا عن معرفة صنع الله بالمبدء . لانهم^(١٥) عجزوا عن معرفته ، ومن^(١٦) عجز

منها المتجزئة عن الاخرى ، وانى وسائلها الخاصة ، واخيراً الى حدود وآفاق كل من هذين
الطين . - راجع كتاب علم الاولياء للترمذي ، ورقة ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ؛
مخطوط خراججي اوغلو ، بورصة رقم ٨٠٦ - وكتاب الملل للترمذي ، ورقة ٣٣٧ ، ١٥٧ ؛
١٨٣ - مخطوط : Leipzig n° 212 D. C. 339 - وكتاب انواع العلوم للترمذي ورقة
١٢٧ - مخطوط ولي الدين رقم ٧٧٠ - راجع ايضاً اخبار الخلاج - 14, 34, 53 - 26 et. 19
طواوين ١٩ . اما معاني العلم من الناحية الفقهية والكلامية والفلسفية فراجع :

المحصل للرازي ص ٢٨ ؛ تعريفات الجرجاني ص ١٤٠ . الارشاد لامام الحرمين ص ٢٣ ؛
والتبديد للباقلاني ص ٣٤ ؛ واين بطة ص ٧ (Trad. Franc) ؛ وطبقات الحنابلة لابن الفراء
مجلد ٣ : ٣١

٨ المقاييس ، ج . قياس ، وهو مع الرأي ، في نظير المذهب السلفي ، يعني الافكار
الشخصية التي تقابل النصوص الشرعية ، وهذه المقابلة قد تنتهي الى نساظر ومن ثم يجب
وقفها عند حدها او الغائها يتأناً . - راجع عقيدة ابن حنبل مجلد ١ : ٣١ ؛ ومجلد ٣ : ٢٤١ -
٢٤٢ . وكتاب المسائل لابن حنبل ص ٢٧٥-٢٧٧ ؛ وكتاب اعلام المرقئين لابن القيم مجلد
١ : ٢٤٤-٢٤٥ ؛ وكتاب . المتسد لابي يعقوب ص ٢٧٥ ، ٣٣٢-٣٣٣ . ويجب ان نلاحظ ان
الترمذي يعيز بين الملة والنياس فهو يقبل الاولى ويرفض الثانية ؛ راجع كتاب الدلائل مقدمة
(للترمذي نفسه) .

٩ صنع الله يعني ، من الوجهة اللغوية ، فعله في الخلق وفضله على عباده . والترمذي
يثبت في سياق بحثه ان طيبة الفضل الالهي ليست في مقابل استحقاق البئد ولا ثمرة كسبه
او صدقه ، بل هي هبة الالهية مباشرة .

(١٠) انظر معنى الصدق في مذهب الترمذي ، المقدمة .

(١١) « « « « « المنة « « « « «

ص - ص ولا بلنوا V . ض + جم V . ط - امور V .

ظ المنازل V . ع للصدف F . غ + قد V .

ف فن V .

عن معرفة الله تعالى ق كان عن معرفة صنابعه أعجز^(١٢) . فلذلك يصير كلامه ل جزافاً في العاقبة .

الفصل الاول

رلي حق الله

والأولياء^١ عندنا على صنفين : صنف أولياء حق الله^(١٣) ، وصنف أولياء الله . وكلاهما يحسبان (١٥٤) أنها أولياء^(١٤) الله .

(١٣) في الواقع ان طيبة معرفة الفكر الانساني لله تعالى ولصنعه محدودة بالنسبة الى الفكر نفسه وبالنسبة الى الاشياء الخارجية التي هي موضوع نشاطه وصراته ، والتي منها او بما يشهد عناصر تفكيره ومقومات افكاره . ومن ثم كان تأكيد الصوفية في سؤ المعرفة الروحية ، او العلم اللدني ، الفاضل من ينبوع الجود الالهي . يقول ابن عربي : « يعني تراني لا بينك فاذا ادركتني ادركت نفسك ، لا تطمع ان تدركني بادراكك نفسك . » (تجليات رقم ٢٨١) .

(١٤) يستعمل الترمذي ، في سياق بحثه في كتاب ختم الاولياء كلمة حق مضافة الى الله : حق الله ، وغير مضافة . فحق الله هو شرع (La loi divine) وهو وصاياه واوامره . اما كلمة حق ، وحدها ، فهو يستعملها هنا بمعنى غريب غير مألوف : الحق هو وسيط بين الله والانسان ليراقب هذا الاخير ، او يشير اذق ليقضيه ، الوفاء بقيام التوحيد ، وهو بهذا المعنى يقابل الرحمة التي تدفع عن الانسان امام الله تعالى . ونحن لا نعلم لاي صوفي آخر نظرية او تفسيراً للحق بهذا المعنى . اما فيما يخص معنى الحق عند الصوفية فننظر شفاء السائل ص ٣٩ ، ٤٣ ، ٦٢ ؛ طبقات الصوفية ص ١٠٦ ، ١٦٧ ، ١٧٧ ؛ فوانح الجبال ص ١٠ ، ١١ ، ٨٦ ؛ سلس جوامع ص ٣٦ ، ٦١ (d'après L. T. p. 33) ؛ روايات الحلاج ؛ طواسين (1,9.IV5 à 9) . اما معاني الحق بصورة عامة فراجع (D. B. Macdonald, E. I. II, 240) ؛ وراجع أيضاً معاني الحق عند فقهاء السلفية ، ابن بطه (Trad. Franç) وابن قدامة ص ٢٩٩ (Trad. Franç) والسياسة الشرعية ص ٥٩ (Trad. Franç) .

(١٥) التمييز بين فكرة اولياء المحفوق الالهية وبين اولياء الله حقاً ، والتي نسدور

- ق - ق - V . ك - V . ل . كلامهم V ، + كلام خرافة V .
 م - V . ا والولي V . ب + منهم V .
 ن + منهم VF .

فأما ولي حق الله فرجل أفاق من سكرته : فتأب الى الله تعالى ، وعزم على الوفاء . لله تعالى بتلك التوبة^(١) . فنظر الى ما يراد له في القيام بهذا الوفاء . فإذا هي حراسة هذه الجوارح السبع : لسانه وسمعه وبصره ويده ورجله وبطنه وفرجه . فصرفها من باله ، وجمع فكرته وهتمه في هذه الحراسة ، ولها عن كل شيء . سواها ، حتى استقام . فهو رجل مؤدي الفرائض حافظ للحدود ، لا يشتغل بشيء غير ذلك . يحرس هذه الجوارح حتى لا ينقطع الوفاء . لله تعالى بما عزم عليه . فسكنت نفسه ، وهدأت جوارحه .

فنظر الى حاله ، فإذا هو على خطر عظيم : لأنه وجد نفسه بمنزلة شجرة تغطت أغصانها والشجرة باقية بجذعها . فما يؤمنه ان يُغفل عنها قليلا فإذا الشجرة قد بدت لها أغصان ، كما كان بدياً ، فكلمها قطعها خراج مكانها مثلها . فقصده

حولها فصول كتاب ختم الاولياء ، تناولها ابن عربي بريشته الصانع وأدخل عليها من التنقيحات الدقيقة ، فلنتسح اليه :

« لله رجال كشف عن قلوبهم فلاحظوا جلاله المطلق ؛ فاعطاهم بذاته ما يستحقه من الآداب والاجلال . فهم القائلون : بحق الله لا بأسه . وهو مقام جليل ، لا ياله الا الأفراد من الرجال . وهو مقام « ارواح الجادات » . ومن هذا المقام « تدكك الجبل » و«صق موسى» عليه السلام ! ولم ينتثر في ذلك الى الارض بالتدكك والصدق . فهو لا خصائص الله قاموا بعبادة الله على «حق الله» ؛ وهم الخارجون عن الارض . - وه « عبيد قانون » بأمر الله ؛ كالملائكة المسخرة . . . الذين ما حصل لهم هذا المقام . فهم « القائلون « بأمر الله » فهم « القائلون بمنزلة العبودية » . وهؤلاء « القائلون بمنزلة الربوبية » . فهؤلاء محتاجون الى « امر » يصرفهم ، وهؤلاء يتصرفون بالذات نصيرف « الحاصية » .

(تجليات « تجلي الحق والامر » رقم ٥٣)

(١٥) هذا النظام الذي يتطه هنا المؤلف قد ذكره ايضاً في كتبه الاخرى ؛ انظر كتاب الدل ورقة ٢٢ (مخطوط ولي الدين رقم ٧٧٠) وكتاب المسائل المكنونة ، ورقة ١-٣٣ (مخطوط Leipzig n° 212) ورسالة الى ابي عثمان ورقة ١٤٠ ، ١٤١ (نفس المخطوط المتقدم) وكتاب ادب النفس ص ٤٥ ، ٤٦ ، ١٥٦-١٥٨ ؛ وكتاب علم الاولياء ص ١٠٨ (مخطوط خراجي اوغلو ، بورصة رقم ٨٠٦) ؛ وكتاب الشفاء والطق ورقة ١-٣٣ (مخطوط ولي الدين رقم ٧٧٠) .

الشجرة ليقطها من أصلها ، ليأمن من خروج أغصانها ، فقطعها . فظن انه قد كفى مؤنتها ، فاذا أصلها قد بدت منه اغصان ! فعرف أنه لا يخلص من شرها دون ان يقلعها من أصلها . فاذا قلعها من أصلها استراح .

فلما نظر هذا العبد الى جوارحه قد هدأت ، التفت الى باطنه ؛ فاذا نفسه محشوة بشهوات هذه الجوارح . فقال : انما هي شهوة واحدة ، أبيع لي منها بعضها وحظر على بعضها : فأنا على خطر عظيم ! احتاج ان احرس بصري حتى لا ينظر الاثم المباح : فاذا بلغ المحذور عليه غمض وأعرض . وكذلك اللسان وجميع الجوارح . فاذا غفلت ساعة عن الحراسة ، رميت في أودية الممالك . فلما وقع في هذا الخوف ، ضقت عليه الخفاة جميع الامور ، وحجزته عن الخلق ، واعجزته عن القيام بكثير من أمور الله ، عز وجل . وصار من يهرب من كل أمر ، عاجزاً منه وخوفاً على جوارحه من نفسه الشهوانية .

فقال في نفسه : قد اشتغل قلبي بحراسة نفسي في جميع عمري ، فمتى أقدر ان أفكر في من الله وصنائه ؟ ومتى يطهر قلبي من هذه الابدانس ؟ فان أهل اليقين يصفون من قلوبهم امراً ، أنا خلوت منها ! فقصد ليطهر الباطن ، بعد ما استقام له تطهير الظاهر . فزعم على رفض كل شهوة في نفسه لهذه الجوارح السبع ، مما أطلق أو حظر عليه . وقال : انما هي شهوة واحدة ، تطلق لي في مكان مكان وتحظر علي في مكان . فلا خلاص منها ، حتى أميتها من نفسي !

- | | | |
|-----------------|----------------------------|---------------|
| ث - V . | ج ارتقب V . | ح شهوات V . |
| خ جذه V . | د اتبع F . | ذ - V . |
| ر واحظر F . | ز بعض V . | س - V . |
| ش الى V . | ص مباح V . | ض او اعرض V . |
| ط فان V . | ظ رمت V . | ع بي V . |
| غ - F . | ف واحجزته V . | ق امر V . |
| ك - ك - V . | ل - ل وصار يهرب من امر V . | |
| م اعجز F ، اعجز | ن خوفاً V . | ه + في V . |
| و خلوت V . | | |

وحسب ان رفضها إمامتها ! فعلم الله صدق الرفض من عبده وماذا يريد .
فأفترقت الإرادة هنا . ففهم من صدق الله في رفضه ليظهر منسأه^{١٤} ،
ويلقاء^{١٥} بصدقه وطهارته لينال ما^{١٦} وعد الصادقين من ثواب جهدهم . ومنهم من
صدق الله في رفضه ليلقاء بخالص العبودية^{١٦} غداً^{١٧} ، فتقرت عينه ببقائه .
ففتح لهذا الطريق اليه ، وترك الآخر على جهده ، واقتضاه^{١٨} ثواب^{١٩} الصدق
يرم لقائه .

فأما الذي فتح له الطريق إليه^{٢٠} ، فهذا الذي ذكره في تنزيله^{٢١}
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنُؤَدِّيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾^{٢٢} فلما فتح له الطريق إليه

١٦) يميز الترمذي بدقة ومهارة بين العبادة وبين العبودية (أو العبادة) . العبودية في
نظره هي الحالة الاصلية للكائن المخلوق من حيث قدره وحاجته لماله ؛ وبهذا الاعتبار
النبودية في المخلوق تقابل الربوبية في الملائق . وفي السورك الصوفي العبودية هو وعي كامل
وتام بغفر الإنسان المطلق تجاه الله سبحانه الذي عن العالمين . اما العبادة فهي تعبير عن هذا
الغفر وعن هذه الحاجة . ولكن العبادة ؛ في نظر شيخنا ؛ ان لم تنبثق من معين هذا الوعي
الشمامل في مظهر خارجي فاقد الحياة . الروح . راجع كتاب الفروق للترمذي ؛ مادة
عبادة وعبودية (مخطوط بازيرو رقم ٨٥٠١٨ : ١٦٠) ؛ راجع ايضاً طبقات الصوفية ؛ سلسلي
ص ٧١٤٧٠ ، ٧١٤٧١ ، ١٠٩ ، ١٢١ ، ٢٤٤ ؛ فرائح الخيال ؛ ص ١٩ ، ١٧٤ ؛ شفاء السائل ص ٤٤ ؛
قشيري ؛ رسالة ص ٧ ؛ سلسلي ؛ جوامع ص ٧٤ (d'après L. T.) ان الماني النفيسية
والكلامية للعبادة والعبودية فراجع :

Methodologie d'Ibn Taïmiyya, p. 74 et Essai, p. 470.

١٧) سورة ٣٩ : ٦٩ . وهذه الآية الكريمة يستشهد بها الترمذي كثيراً في كتبه ؛
انظر مثلاً ادب النفس ص ١٠٠ ، ١٤٨ ، ١٥١ . قادن المعنى الخاص للآية القرآنية الذي يذكره
الترمذي هنا مع الماني الاخرى التي يذكرها عادة المفسرون : ابن كثير ٣ : ٢٢ ؛

ي - V .	١ - وبلغ V - F .	ب - وما V .
ت - عبداً F .	ت - فيفر F .	ج - هذا F
ح - واقتضاه V .	د - V .	د - واما V .
ذ - V .	س - + قوله عز وجل V .	ش - وان انك لمع

الحسين V .

